الفصل الثالث عشر

رؤيا يوحنا ملحمة رجاء

الاخت كليمنص حلو

الكتاب المقدس كله تساؤل عن الحق. ويبلغ هذا التساؤل ذروته في الانجيل عند محاكمة يسوع. وهذه المحاكمة لم تنته بعد ما دام في الأرض أبرياء يجلدون ويصلبون ويموتون. هل من الحق أن يهدم البلد الصغير وتقوّض أركانه ويتشتت أهله ويروعون؟ كل مرة يحكم فيها على بريء تنفجر الأزمة في قلب الظالم والمظلوم معاً. بل هو بيلاطس وقد قضّ الظلم مضجعه فحوّله من حاكم إلى محكوم عليه يتساءل عن الحقّ.

فالأزمة هي هزة ضمير عميقة، أسماها اليونان محاكمة، لأنها تفتح عيوننا على كل جوانب الواقع، وتفسح لنا بالتالي المجال لكي نتخطاه وننطلق من جديد. هذا ما نقوله في أحداث لبنان التي أسقطت الأقنعة عن كل الوجوه. ولكننا بتنا بعدها منقسمين وحائرين بل شبه مشلولين وطرقنا مسدودة. فمن ينقذنا من هذا الوضع ويفتح الطريق أمامنا؟ وحده ذلك الذي لم يقل الحق فقط بل مات عنه، يمكنه أن يرشدنا إلى ذلك ويساعدنا في تحقيقه. «إلى من نذهب يا ربّ وكلام الحياة الأبدية هو عندك؟»

وكلمات الحياة هذه لقد اخترنا أن نقرأها اليوم في رؤيا يوحنا التي نعتبرها ملحمة الرجاء. فلماذا هذا الاختيار؟ وهل يجاوب على انتظاراتنا؟

١ ـ لماذا اخترنا رؤيا يوحنا؟

قد تستغربون أن نكون اخترنا الرؤيا للخروج من الأزمة وهي أزمة بحدّ ذاتها.

اننا اخترنا هذا الكتاب أولاً من أجل التجربة القاسية التي يخضعنا لها وهي

تختصر أزمتين: أزمة المحنة والمنفى التي كان يعانيها يوحنا من أجل المسيح، وأزمة القراءة لنص يوحنا الذي يصف الخلاص من هذه المحنة. وفي كلتا الحالتين تطرح الأزمة تساؤلات نعتبرها طريقاً إلى الحقيقة.

ولقد اخترنا كتاب الرؤيا ثانياً لأنه يأتي بالجديد بالنسبة لباقي الكتب المقدّسة. فهو يفسح أكثر من غيره المجال للمخيلة لأن تصوّر حلولاً جديدة للأزمات، لا في زمان آخر، ومكان آخر بل إنطلاقاً منهما، أي من السماء ومن الأبدية، ولكن من أجل تحسين الواقع في هذا الزمان وفي هذه الأرض.

ولأن كثيرين توقفوا عند هذه التصورات بحدّ ذاتها أو عند صعوبة النص الحرفي دون ملاحقة المعنى حتى النهاية، بقي الكتاب مغلقاً بالنسبة لهم أو إذا فهم فبشكل منتقص. ومحاولتنا اليوم لتخطي هذه الصعوبة هي عملية رجاء بحد ذاتها ليس فقط لأجل ما نتوخاه في الرؤيا من حلول مهما كانت جزئية ومنتقصة بل من أجل اتكالنا في قراءتها على الهامات الروح القدس الذي له وحده أن يعضد ضعفنا، «بأنّات لا توصف» كما يقول الرسول.

أ ـ لماذا أهملنا كتاب الرؤيا

٢ . . . هذا الكتاب صيته عاطل» ولا يزال التشكيك يرافقه منذ البداية رغم عودة البحّاثة إليه في السنين الأخيرة. لقد ضمته الكنيسة متأخراً إلى مجموعة كتب العهد الجديد وبقي فيها الأخير مكاناً ومكانة. فاكتفينا منه ببعض الاستشهادات المبعثرة هنا وهناك وبقي كالنسيب الفقير نستحي به ونبادر بالاعتذار قبل التحدث عنه.

فلماذا حكم على رؤيا يوحنا بالتعطيل أو الموت؟ لأنها عبر التاريخ فهمت على غير حقيقتها أو فهمت بشكل جزئي. كما نرى ذلك عند الرؤيويين والمؤرّخين والعرافة.

٣ ـ فالرؤيون: هم الذين يتوقفون عند النواحي السلبيّة المأساويّة من الرؤيا فلا يرون فيها سوى هجمة الشّر الرهيبة التي تفلت فيها فرسان الفتح ووحوشه الضارية (شي بروس شي بلا روس) ممعنة حرقاً وتقتيلاً وتشريداً. فبتنا ننعت

«بالرؤيوي» كل مشهد خراب ودمار. مثلاً: عندما غرقت بيروت في حممها، تحت قصف المدافع، طلعت علينا الجرائد بعناوينها الكبيرة متحدثة عن «مشاهد رؤيويّة» (Apocalypse à Beyrouth). حرب فيتنام وصفت في فيلم سمي «ابوكاليبس ناو» أو «الرؤيا الآن» وهذا الفيلم المشهور شاهده الكثيرون في لبنان وهو كناية عن أوبرا سحريّة عن الموت بل مأساة جماعيّة بحجم البشريّة كلها تتمثّل برجل واحد يحمل فظاعة وبشاعة هذه الحرب المدمّرة بكل خطاياها. ولكنه في قلقه يبقى مغلقاً على ذاته فتتمثّل به الأزمة في أشدّها وتبقى هكذا سؤالاً مطروحاً.

والأمثلة عديدة في الأدب والفن المعاصر عن هذه النزعة الرؤيويّة ونحن على أعتاب السنة الألفين. كلها تتبارى في تصوير الضياع والتفاهة وفقدان المعنى، وتعبر عن التساؤلات الجذريّة حول المصير التي لا تجد لها جواباً. بحيث أصبح نعت «الرؤيوي» «على الموضة» وهو يتميّز بصور قاتمة مجرّدة أغلقت على ذاتها في «شيفرة» عويصة. أو إذا انفتحت خطوطها فهي تتبعثر في كل ناحية دون الوصول إلى هدف لأنه ليس نواة ضابطة للمعنى تحفظها ضمن حدودها لا في البداية ولا في النهاية.

٤ ـ والذين ساهموا أيضاً في اساءة فهم الرؤيا هم البحاثة نفسهم، لقد اكتفوا بنظرة معيّنة إلى الرؤيا. والمؤرّخين توقفوا عند الجانب التاريخي منها فأبرزوا وضع المسيحيّة الأولى وسيطرة الرومان والعقليّة السائدة آنذاك الخ. وهناك أيضاً فئة من يهمهم التنبوء عن الأزمنة ونهاية التاريخ على طريقة «تؤلف ولا تؤلفان» وقد وجدوا في الرؤيا مجالاً خصباً لخيالهم كأن الرؤيا هي مجموعة «حزازير» دون التنبه لما قاله الربّ: «ان تلك الساعة لا يعرفها أحد. . .».

وعلماء الكتاب المقدس اكتفوا بمقارنة الرؤيا مع الكتب المقدسة الأخرى مبينين الجوانب المشتركة، وقد فاتهم أن الرؤيا نوع أدبي فريد يعطي للبشارة نوعية واتجاهاً جديدين. فما هو هذا الجديد الذي تضيفه الرؤيا؟ ليس هذا الجديد حقائق إيمانيّة جديدة ولا معلومات جديدة عن حياة المسيح. كل ذلك قد ورد في العهد القديم الذي أعدَّ الطريق للمخلّص وفي الإنجيل الذي روى لنا بشارة الخلاص. فمع الإنجيل قد «تمّ كل شيء»، والحقيقة انه ما تمّ هنا بقي له أن يدخل في التاريخ وأن يكون له مستقبل.

٥ ـ هنا يتضح معنى الرؤيا الخاص، فبعد مجيء المخلّص وموته وقيامته يبقى السؤال: ماذا بعد؟ وهذا «الماذا بعد» لا نستطيع فصله عن حدث المسيح. إذ إننا نجد في الرؤيا تعبيراً عن مستقبل المسيح ومستقبل كنيسته وعن فعاليته المستمرة في التاريخ إلى ما بعد التاريخ.

هذا هو السؤال الذي تجيب عليه الرؤيا: كيف يمكننا أن نحرّك تاريخ الخلاص ونجعل المسيح يتجسّد يوماً فيوماً، في واقع الحياة اليومية، وتصبح قيامته لا مجرد حادثة نقرأها في كتاب بل حدثاً يومياً يغيّر وجه الكون بتغيير نظرتنا إلى كل ما يجري حولنا. ولذلك فالرؤيا تبتدىء من النهاية التي نحن إليها صائرون. فتصوّر لنا القيامة الحقيقيّة التي يصبو إليها الإنسان بكل جوارحه، وهي أشبه بحفلة عرس يلتقي فيها الإنسان مع الله ومع إخوته البشر، في مصالحة مع الكون كله. وهذه المصالحة الشاملة هي الوطن الحقيقي، «أورشليم السماويّة»، التي تحاول كل الأوطان ان تتشبّه بها وتهيّئنا بل تقودنا إليها رويداً رويداً.

ونحن اليوم، في الأيام العصيبة التي نعيش، نحنّ إلى وطن هو الصورة المثلى للخلاص. وهل أجمل من الصورة التي تعطينا اياها الرؤيا وأصلح منها منطلقاً ومثلاً أعلى يحتذى في بناء ما تهدّم من وطننا؟

٦ ـ ولكن إذا كان الهدف من الرؤيا هو إشاعة الرجاء فلماذا هذا الدفق من الرموز والأعداد والصور العويصة؟ لماذا ثورة هذا العالم المتخبّط المتصارع بعناصره وحيواناته الرهيبة؟ فكأنك في «برج بابل» يصعب عليك أن تكتشف اللحمة التي تربط الأحداث أو الخيط الرفيع الذي يربط أجزاء الحلم، أي حلم كان، حتى ولو كان «كابوساً مزعجاً». هذا الخيط الخفي لا يزال مفقوداً رغم كل المحاولات. هذا ما أقرّ به منذ سنتين مؤتمر اللاهوتيين المنعقد في تولوز حول كتاب «الرؤيا». إلا إذا كانت هذه الفوضى هي خطة مدروسة واستراتيجيّة معينة لكي تجبرنا نحن ذاتنا على أن نخوض معركة مع الكتاب ونختبر صراعاً بل أزمة حقيقيّة عندما تسدّ أمامنا الطرقات ونحاول دون جدوى أن نكتشف السياق والمعنى. ولكن المهم أن لا نتوقّف عند هذا التخبط ونيأس. المهم أن لا نغلق الكتاب قبل أن نصل إلى النهاية لأن هذه النهاية وحدها هي المقصودة. فإذا يئسنا خسرنا المعركة ولكن إذا أكملنا

نكون انتقلنا من فوضى ما قبل التاريخ إلى خلق جديد ومن المصارعة مع الرموز إلى وطن زال منه كل رمز. إلى أورشليم مدينة السلام التي لم تعد بحاجة إلى هياكل. كلها سقطت وزالت «لأن الربّ الاله القدير والحمل هما هيكلها». إلى مدينة «لا تحتاج إلى نور الشمس والقمر لأن مجد الله ينيرها والحمل هو مصباحاً. وهي شرّعت أبوابها، لم تعد تغلقها طوال اليوم، لأنه لم يعد من ليل هناك».

ب ـ النوع الأدبي الفريد

٧ ـ هذه هي الرؤيا حسب نوعها الأدبي الفريد. انها اختبار ومنهج بل هي عبور وجودي إلى الشاطىء الآخر. هذا ما يدل عليه اسمها الأصيل «ابوكاليبس» (Apocolypsis)وهو رفع الحجاب الفاصل بين الظاهر والخفي، بين العرض والجوهر، بين الواقع والحقيقة. وهي في هذا المعنى تلتقي بكلمة (Alethéia) التي هي الحقيقة عينها ولقد فسّرها هيدغر بأنها أيضاً رفع الحجاب.

وهذا العبور الذي تهدف إليه الرؤيا يتم على عدة مستويات: من السماع إلى النظر، ومن النظر إلى الرؤية، ومن عهد إلى عهد آخر.

الرؤيا هي العبور من السماع إلى النظر أي من الكلمة إلى الصورة، إنها عالم رموز وصور وأعداد. وكل هذه الرموز هي ديناميكيّة فعّالة تنجز ما توميء إليه وتفعل كل ما تقوله. فالأختام والأبواق والجامات والأصوات هي رموز متحركة. إنها تتلاحق في سبعات (٧ ختوم و٧ أبواق الخ) هي أشبه بفصول كتاب ولكنها متداخلة لأن آخر عدد من كل فصل هو بداية للفصل اللاحق. فالختوم تؤمن مضمون الرسالة وإيصالها لصاحبها والأبواق تدعو للتجمع وتبشّر بالفرح أو تنذر بالكره. والجامات معدّة لفرح الوليمة ولكنها إذا طفحت يكون قد طفح الكيل الخ...

والأعداد كذلك هي متحركة. فالعدد ٧ وهو الأهمّ يعني لقاء الله مع الكون بالمصالحة الشاملة ٣ مع ٤ (٣ هو العدد الإلهي و٤ هي أربعة أقطار المسكونة) والعدد ١٢ وهو ٣× ٤ والعدد ١٠ ومشتقاتهما يعنيان أيضاً الكمال والشمول بينما ٦ و٢/٣١ واتباعهما أعداد ناقصة الخ...

في الرؤيا الألوان أيضاً تتكلّم. فالأبيض يعني الفرح والانتصار والأسود المجاعة والأحمر القتل والاستشهاد والأخضر المرض وقوس القزح شموليّة رحمة الله الخ...

والمشاهدات تتصل بعضها ببعض دون سابق إنذار، فالمدينة هي عروس تتزيّن لعريسها والشاهد يتكلّم كهدير مياه غزيرة انه يصرخ كالرعد ويغني كالموسيقى والصوت نلتفت لنراه...

٨ ـ ولكن الرؤيا ليست فقط عبوراً من السماع إلى النظر بل أعمق من هذا: هي انتقال من المنهج اليهودي الذي يرتكز على الكلمة المسموعة، إلى المنهج اليوناني الذي يتوسل الرؤية لاكتناه الكلمة. فالكتاب المقدس يدور حول نواة العهد بين الله واسرائيل وهذا العهد يبدأ بكلمة «اسمع...» بينما الرؤية هي أشمل من السماع وقد وضعها الغنوصيون في التداول من أجل معرفة أكمل. ان الرؤية لا تعني فقط النظر بل هي أيضاً الالتصاق واللمس لأن اليد أقوى معاون للعين والسماع هو صلة الوصل بينهما. ولقد اختصر يوحنا الرسول هذا الاختبار في رسالته الأولى مبيناً كيف ان الكلمة التي نسمعها ونراها بعيوننا ونتأملها ونلمسها بأيدينا تتحول ليس فقط إلى كلمة حياة بل إلى المسيح ذاته الذي يتجلى لنا من خلالها.

والرؤية نلجأ إليها تلقائياً وقت الأزمات من حيث ان الكلمات تفقد قدرتها آنذاك على وصف المعاناة وعن رسم الصورة التي لنا بها الخلاص. وهذا اليأس من الكلمات نختبره اليوم في لبنان فنتمنى ان «نرى» بدل ان نكتفي بالسماع وهذه الرؤية هي نعمة من الله وبركة. ان أيوب في أوج محنته عبّر عن هذا الانتقال من السماع إلى الرؤية وكأنه بداية النهاية والخروج الأمثل من المأزق فقال للربّ: «كنت حتى الآن قد سمعت عنك بالأذن، أما الآن فقد رأتك عيني».

٩ ـ والرؤيا عبور من العهد القديم إلى العهد الجديد لأنها أقرب الكتب إلى التراث اليهودي وقد أعادت فهمه تقريباً بمجمله على طريقتها الخاصة ولكنها بالوقت نفسه تمثل النقطة الحاسمة من انفصال المسيحيّين عن اليهود والصدى الأعمق والأرهف عن حماس الكنيسة الناشئة وصلابة مواقفها.

ولكنها كمنهج للانتقال والعبور تبلغ الرؤيا الفقر المثالي والتخلي الذي يؤهّلها

لأن تكون صلة الوصل بين كل العهود. وهذا الكتاب الذي اسمه الرؤيا لأنه الأخير في الكتب هو مؤهل أكثر من غيره لأن يكون لا نهاية بل بداية، والمقدمة الطبيعية للعهد الثالث من الكتب المقدسة. وأول صفحة لكتاب لم يكتب بعد سيكون من عمل الروح القدس في العالم. في كتابة هذا العهد الثالث نحن مدعوون جميعاً لأن نشترك مع الله في بناء تاريخ الإنسان في الكنيسة وتاريخ الكنيسة في البشرية وتاريخ البشرية في الكون.

هذه هي ملحمة الرجاء في الرؤيا. لن نفهمها إذا بقينا في الخارج كالمتفرجين. إنها تدعونا للدخول والاشتراك معها في مسيرة الخلاص والعبور.

ج ـ الرؤيا ملحمة الرجاء

١٠ ـ من خبرة رسول، وتاريخ كنيسة، ينطلق الشاهد يوحنا إلى رؤية تاريخ البشرية كلها في الكون. وهنا تتفاعل الحقيقة مع الاسطورة. بل ان الحقيقة التاريخيّة تتوسّل الاسطورة لكي ترفع الصراع والخلاص معاً إلى مستوى المعاناة الشاملة. وذلك انطلاقاً من هزة ضمير عنيفة تثقل كاهل يوحنا، كما عبّأت قلب البطل في فيلم «ابوكاليبس ناو». يرزح الواحد تحتها بينما الآخر يحاول رفعها مع الحمل الإلهي الذي جاء ليخلّص العالم ويرفع خطيئته. وفي كلتا الحالتين المهم، هو الاخلاص والصدق في وعي الصراع القائم وتبنيه. وهكذا نتحول من متفرجين إلى مشاركين في الرؤيا.

وخبرة الرؤيا تكوّن مسرحيّة ملحميّة ذات ثلاثة فصول، وفي كل فصل تتعاقب اللوحات أو تتوازى وهي على ثلاثة مستويات: المستوى التاريخي وهو المنطلق ثم المستوى الاسطوري وهو المكمل للمستوى التاريخي، ويتوسّطهما المستوى اللاهوتي الذي يشرح ارتباطهما وتفاعلهما. وفي هذه الأدوار الثلاثة التي نحن مدعوون إلى تمثيلها علينا أن نغيّر زيّنا المسرحيّ ثلاث مرات: الزي الأول نلبسه لكي نلعب الدور التاريخيّ، والزي الثاني دور الشعر الملهم، والدور الثالث هو للشارح الملتزم في الحاضر. وهدف الشارح الأول تفسير الصور والرؤى بلغة الواقع. وهدفه الثاني استخراج المعنى الثابت الذي من شأنه أن يدخل تاريخ الخلاص في حيّز الممكنات اليوميّة ويحرّك تاريخ البشريّة نحو اكتماله كما رآه تيلار دي شردان.

١١ ـ نبدأ باللوحة التاريخيّة، وهي في ثلاث محطات متداخلة: تجلي الربّ ليوحنا ومن خلاله للكنيسة ثم للبشريّة كلها.

ان الربّ يتجلى ليوحنا في الزمان والمكان وسط ظروف معيّنة. فالزمان هو يوم الربّ أي يوم الأحد، وسط الليتورجيا، والمكان هو جزيرة بطمس حيث نفي الرسول من «أجل كلمة الله وشهادة يسوع». انه كان معزولاً، وبين العزل والانعزال قرابة.

ومن هذا التجلي الذي حوّل منفى يوحنا إلى وطن، ينطلق تاريخ الكنيسة، لأن الهدف الأساسي من تجلّي الربّ للشاهد يوحنا لم يكن المقصود به يوحنا نفسه بل الكنيسة في مقاطعة آسيا. انه مكلّف بمهمّة وهي نقل الكلمة، كلمة السّر، وهي كلمة سرّ ليس لكونها «شيفرة عويصة» بل لأنها غنيّة كالحياة نفسها. ولذلك فالرسول ليس مدعواً قبل كل شيء لأن يسمعها كالكلمات العاديّة، بل أن يراها بعد ان يختبرها بموت وقيامة حقيقيّة مع المسيح، وبعد ذلك يحملها للآخرين. يقع الرسول كالميت أمام إبن البشر المتجلّي إلى أن يلمسه بيمينه قائلاً: «لا تخف، أنا الأول والأخير. بيدي مفاتيح الموت والجحيم. فاكتب ما تراه مما يكون الآن وممّا سيكون فيما بعد».

١٢ ـ وأول ظاهرة لهذا التجلّي هو انفتاح الزمن على المستقبل. وهذا الانفتاح يغيّر النظرة على وجود الله في التاريخ. وهي نظرة العهد الجديد، تختلف تماماً عن النظرة اليونانيّة لزمن يعيد ذاته أبداً، أو للنظرة اليهوديّة التي تركّز على صورة الله في الزمن المطلق. لقد أعلن الله لموسى في العليقة لما سأله عن اسمه قائلاً: «أنا هو الكائن» أي أنا في حاضر دائم. أما ابن البشر الذي يتجلّى ليوحنا فقد فتح الزمان على كل أبعاده انطلاقاً من الحاضر. لم يفتحه فقط على الماضي كما يفعل المؤرّخ بل على المستقبل أيضاً. وهذا المستقبل لن يكون أبداً شبيهاً بالحاضر والماضي. انه جديد تماماً وغير منتظر: «لأن ما أعدّه الله لأحبائه لم تره عين ولا سمعت به أذن». ففي الثالوث الزمني الذي يتجلى فيه المسيح ليوحنا كنا نتصوّر ان يعبّر عن ذاته بأنه «الكائن، والذي كان، والذي سيصير» ولكنه تلافى هذه الصيرورة التلقائيّة وأوضح

ان الله ليس فقط هو الكائن والذي كان بل هو «الآتي». بحيث أصبح الآتي هو الاسم الجديد الذي اعطي له.

وكم نفرح عندما نعلم ان هذه التسمية الأساسيّة لله بأنه «الآتي» هي من تراثنا الليتورجي، حافظت عليها الرؤيا على مرّ العصور في أصلها الآرامي: «ماراناتا». انها منذ البداية خير شاهد لمقومات شعبنا ودعوته الأساسيّة: انه شعب الانتظار والرجاء.

ومهمة الرجاء هذه التي تفتحنا على مجيء الله في المستقبل تجعلنا شركاء اصيلين في هذا المجيء. ان تاريخ الله ليس مفصولاً عن تاريخ البشر. هذه هي البشرى التي كلّف الملاك يوحنا لأن يحملها إلى الكنائس السبع: «اكتب ما رأيت وابعث به إلى أفسس وأزمير وبرغامس وتياطيره وسرديس وفيلدلفية واللاذقية».

هذه الكنائس معروفة بأسمائها وخصائصها ولها على رأسها «ملائكة» يديرون شؤونها ويكوّنون صلة الوصل بين ارادة الله وحاجات الشعب. وهي أيضاً مدعوة لأن تنطلق من واقعها ومعطياتها وتجسّد به كلمة الله.

وهذه الكنائس هي سبع للدلالة على الشمول وعلى أن هذه الكنائس بالتالي ليست هي المعنيّة وحدها بكلمة الحياة بل بواسطتها كل البشريّة والكون نفسه. وهنا ينتهي الفصل الأول من المسرحيّة وهو الأساس والمرجع لكل ما تبقى.

د ـ مستقبل الكنيسة بين الماضي والحاضر

١٣ ـ ثم يبدأ الفصل الثاني وينقسم إلى لوحتين مهمتين في التاريخ. هما في الماضي تاريخ الشعب الاسرائيلي وفي الحاضر الاحتلال الروماني وبين هاتين اللوحتين، لوحة تحملها الكنيسة فتشدّ بها إلى الوراء كتراث يخصّها هي أيضاً ولكنها تتقاسمه مع اليهود الذين يناصبونها العداء. وبين الحاضر الذي يشتدّ طغيانه ويحاول أن يجرف الكنيسة في تيار التعبد للاباطرة الرومان وأصنامهم، بدل السير وراء المسيح وحده. أي مستقبل للكنيسة؟ هذا السؤال ليس غريباً عنا. انه سؤالنا بالذات.

وهنا تبلغ الأزمة اشدّها فلا بدّ من اللجوء إلى الشعر لتوسيع المدى وتصوير حدّة الواقع ينطلق منه الشاهد كما من فوهة كاميرا. فالمكان يصبح الكون كله،

والزمان هو كل الأزمنة، والقوى هي كل عناصر الطبيعة. ولكن كل هذه المعطيات تبقى كأجزاء الأوركسترا التي تنتظر من يديرها وتنطلق فيها الحركة من ارادة شخص واحد كما في الفيلم الذي ذكرناه فتتحرّك القوى جميعها في كل الأزمنة والأمكنة: تتصارع وتتكامل إلى أن تتوصل في النهاية إلى المصالحة الكاملة إلى قمة الفرح كما في السمفونيّة التاسعة لبيتهوفن.

هذا الفصل الثاني من المسرحيّة هو قلب الأزمة. كيف تنطلق فيها الحركة وبأي اتجاه؟ تظهر قبل كل شيء الأمكنة وكأننا في مسرح القرون الوسطى يتألف فيه الديكور من ثلاث طبقات: الأرض وفوقها السماء، وتحتها أعماق الهوة في البحار.

وتفتح السماء (هذه التي كانت موصدة منذ اختفاء آخر الأنبياء لمئات السنين منذ أيام دانيال وفتحها ابن الإنسان بتجسّده)، فنراها كلها عرشاً، بل عروش لا تعدّ ولا تحصى. أين اعدّت هذه العروش ولمن؟ انها اعدّت في كل مكان من الأرض والسماء للخالق الذي ليس له اسم لأن كل شيء في الكون يحمل اسمه. انه الجالس... ولكن هذه العروش ليست له وحده بل لنا أيضاً ولكل الكائنات وهي ممثّلة بالأربعة والعشرين شيخاً من العهد القديم والجديد وبالحيوانات الأربعة التي تمثّل أقطار المسكونة الأربعة وقد تحوّلت إلى ملائكة وسيرافيم تنشد نشيد أشعيا: قدوس...

فما هو سرّ ارتباط السماء بالأرض هكذا، وحقيقة تحوّل الكون لعرش الله، والانسان إلى نديم له، والحيوانات إلى ملائكة تنشد وتسبّح؟ هذه هي عقدة المسرحيّة.

ان سرّ التحوّل لا يمكن ان يفهمه الإنسان في منطقه البشري ولذلك بقي مستوراً في كتاب «مختوم بسبعة أختام» للتشديد على عمق السرّ الذي بقي مسجوناً بل محكوم عليه بالموت.

وهنا تبدأ الأوركسترا: إذ يدقّ الملاك الباب ويسأل: «من هو الأهل لفتح الكتاب وفضّ ختمه»؟، «لم يستطع أحد في السماء ولا في الأرض ولا تحت الأرض أن يفتح الكتاب وينظر ما فيه». ويأخذ اليأس من الشاهد مأخذه فيستسلم للبكاء

الشديد. انها ساعة الصفر. ساعة الطرقات المسدودة. وتبدأ الوعود بالحلّ. فيبشّرون يوحنا بقدوم الأسد وهو من سبط يهوذا وذرية داود. فإذا القادم حمل لا يزال يحمل آثار الذبح ولكنه منتصب وقائم، وهو وحده بذبحه وقيامته مستحقّ أن يأخذ الكتاب ويفضّ أختامه السبعة الواحد تلو الآخر.

هذا هو عنصر المفاجأة في المسرحيّة. وما أن يبدأ الحمل بفضّ الأختام حتى تبدأ الأوركسترا ويتحرّك الكون كله في كل الأزمنة والأمكنة والعناصر، وتتوالى الانقسامات. لأن الحقيقة التي يكشف الحمل سرّها هي كلمة الله الحيّة وهي أشبه بالسيف القاطع، لا تحمل غشاً. لا تطيق «البين بين» ولا المنزلة بين المنزلتين. انها أبيض أو أسود. نعم أو لا. وعن هذه الانقسامات التي تمتدّ حتى آخر هذين الفصلين سنعطي صورة مقتضبة لضيق الوقت.

يتزعّم الحركة الحمل فهو البطل يعاونه أتباعه المتصفون بصفاته. وأتباعه بالتدرّج هم القديسون الذين ارتفع إلى السماء عطر صلواتهم، هم الشهداء الذين بقيت دماؤهم تصرخ من تحت المذبح والشهود والأنبياء، فالشهداء بصوتهم والأنبياء بتأمّلاتهم وصلواتهم استحقوا مثل الحمل ان يفتحوا الكتاب. أما المدينة التي يسكن فيها أتباع الحمل وهم ١٤٤ ألفاً (أي ١٢× ١٢) دلالة على كثرة عددهم، فهي تعيش في الترقب والانتظار، ولقد استحقّ سكانها أن يحملوا سمة الحمل على جباههم. فهم معدون مثله للموت والقيامة وقد استحقوا باستشهادهم وشهادتهم أن يعطى لهم الكتاب. ليس مفتوحاً فقط بل كتاب حياة.

١٤ ـ وفي وسط الكماشة بين الماضي الخانق والحاضر المضني وفي نصف الكتاب بالذات (الفصل ١٢) كما في وسط الليل، وفي الحدّ الفاصل بين الأرض والسماء تظهر الأعجوبة التي هي التحوّل الأساسيّ وفي أصل كل التحوّلات. و«هي المرأة الحبلى التي تصرخ من ألم المخاض... ثم تلد ولداً ذكراً هو الذي سيحكم الأمم كلها». فالمرأة هنا ليست هي العذراء مريم فحسب بل الكنيسة أيضاً والبشريّة المتألّمة بل الكون «لأن الخليقة كلها، كما يقول القديس بولس، تئن وتتمخّض منتظرة الخلاص». وهذا الخلاص قد ابتدأ.

والولد هو صورة أخرى للحمل ولكن من جهة التصاقه بالله الذي يرجع إليه

سريعاً، والولد مع المرأة يمثّلان انتصار الحمل رغم وداعته وضعفه لأنهما يغلبان التنين وأعوانه.

وهذا المقطع النصفي من الكتاب يشكّل نقطة تحوّل وعبور، يظهر فيها الصراع محتدماً في الحاضر بين الصدق الذي تمثّله كلمة الله والكذبة الكبرى في فمّ التنين وأعوانه. فتأخذ كلمة الله شكلين مميّزين هما المنجل المسنون في يد حصاد الأرض الذي يمثّل عدل الله وأحكامه القاسية، ثم نعود في آخر المطاف إلى الشكل الأول الذي أخذته في تجلّي ابن البشر أي شكل السيف المسنون في يد الراكب على الفرس الأبيض ولكنها هنا لم تعد مجرّد سيف بل قد تحوّل الفارس كلّه فأصبح اسمه كلمة الله.

ان الصراع كله في هذين الفصلين دائر حول كلمة الله التي تكشف النوايا وتظهر الحقّ من الباطل. والصراع يحتدم على كل المستويات بين الله الممثّل بميخائيل وملائكته والتنين وملائكته. بين الحمل الصامت والوحش الكثير الضجيج والكذب، بين الشهود والأنبياء والنبيّ الزائف، بين مدينة الانتظار ومدينة الاتجار والمقايضة. بين المرأة التي تساهم في الخلاص والفاجرة بابل الزانية. بين طهارة الولد وقباحة الوحش. بين المدينة السماويّة التي يجتمع الكل فيها وأغوار الهوة حيث تقيم الزانية وأتباعها الكثر.

كل هذا الصراع الدائر هدفه أن يبلور كلمة الله ويحوّلها إلى وطن. وهنا ينتهي الفصل الثاني من المسرحيّة وقد كان طويلاً لأنه يمثّل مسيرة البشريّة من الماضي والحاضر مندفعة نحو المستقبل. وهذا الاندفاع يؤدي ولادة الكلمة التي تجري الحكم القاسي وتصنع الدينونة ابتداء من الحاضر. هذه الدينونة الشاملة هي «يوم الربّ» لأنه فيها ينجز الحكم النهائي. فلا يبقى إلّا منتصر واحد وهو الفارس الراكب على الفرس الأبيض وهو الأمين والصادق واسمه كلمة الله.

بعد هذا الانتصار يبدأ الفصل الثالث والأخير من مسرحيّة الرؤيا الملحميّة.

هـ ـ أورشليم الجديدة

١٥ ـ هذا الفصل الأخير ينفتح مثل الكتاب ذاته على صفحتين: أورشليم الجديدة والفردوس الجديد.

فأورشليم هي كلمة الله التي تجسّدت في وطن وتغلّبت فيه على المستحيل. فالمدينة تهبط من علُ، تأتي، كالوطن المنتظر، من المستقبل، كما الله ذاته، ولكنها ليست مجرد تصوّرات خياليّة تلهينا عن الحقيقة. لأن هذه المدينة بقياساتها الدقيقة وعدد أعمدتها واسم كل حجر من حجاراتها هي ذات جذور في الأرض وفي الواقع. لكنها تنطلق منه وتتحوّل إلى الصورة المثلى التي يريدها الله لنا. وتعود فتنجلي أمامنا هكذا مذكية فينا الرجاء بالاستقرار والمصالحة واللقاء الكامل مع الله.

وفي الصفحة الثانية من الكتاب المفتوح وفي آخر الرؤيا صورة الفردوس كنسخة مكبّرة عن المدينة التي تحولت إلى جنّة على اتساع الكون بأنوارها ونهر الحياة الصافي الذي ينعم به مدعوّو الله.

ونظن فترة أننا انتقلنا إلى عالم آخر وإلى زمن آخر غير هذا الزمن وغير هذه الأرض. فنكتشف أننا لا نزال في المدينة حيث يقوم «عرش الله والحمل فيعبده عباد الله ويشاهدون وجهه ويكون اسمه على جباههم».

هذا يعني أن هذه المدينة الجديدة وهذا الفردوس الجديد ليسا فقط صورة عن الزمان الآخر، وعما ينتظرنا في الوطن الحقيقي في آخر الأزمنة الاسكاتولوجيّة، بل أن هذا النصر قد ابتدأ منذ الآن بتجسّد ابن الله في التاريخ وبتجسيد كلمته في تاريخنا اليومي الذي نساهم فيه يومياً إذ نجعل من هذه الكلمة شجرة حياة في وسط مجتمع ينتظر منا أن نكون كالخمير والملح والعجين اداة تحريك وتحوّل. فنساهم في تطوير هذا المجتمع ليس فقط إلى مدينة يحلو فيها السكن بل إلى جنّة اسمها العالم.

أمام هذا المدى المفتوح يغلق الستار وتنتهي المسرحيّة. بعد أن تكون سرت فينا العدوى وتأجّج الانتظار فنردّد مع الروح والعروس «تعال». آمين «ماراناتا». «ايها الربّ تعال».

الخاتمة

بعد هذا المطاف السريع في رؤيا يوحنا نرجع إلى زيّنا العادي في دور أخير هو

الأهم نبدأ فيه حيث انتهينا، ونلتزم ما كشفته لنا الرؤيا في ثلاثة اتجاهات هي في صلب دعوتنا.

أولاً ـ اننا شعب الرؤيا

فنحن إذاً مدعوون لأن نختبر كلمة الله في الكتاب المقدس في تأملات فرديّة وجماعيّة لا يعود بعدها الكتاب كتاباً بل شخصاً من خلال الكلمات ينادينا باسمنا وينير لنا الطرق.

وأفضل أوقات لرؤية كلمة الله هي الليتورجيا حيث نتذكّر سوية ما عمله الربّ معنا منذ سالف الأيام ونستبق ما يعدنا به ويعدّه لنا في المستقبل. في الليتورجيا نختبر محبّته «هو الذي يحبّنا» في حاضر دائم هو بداية لا تنتهي. ونختبر قدرته هو الالف والياء، الأول والآخر، البداية والنهاية، والكل في قبضة يمينه، فينتفي الخوف من قلوبنا.

ثانياً ـ اننا شعب الانتظار

تربطنا بالرؤيا قرابة قديمة. فالرجاء يفتح أبواب المستقبل أمامنا ويدعونا للدخول في تاريخ لا يعيد ذاته تلقائياً بل ينطلق من النهاية التي نصبو إليها. وإذا رجعنا للماضي وتذكّرناه فلا يكون ذلك للتشبث به بل لاستلهامه في بناء مستقبل أفضل ونكون بذلك كالرياضي الذي يرجع إلى الوراء في تحفزه للقفز بعيداً إلى الأمام.

ثالثاً ـ نحن شعب المنطق المعكوس

لأننا إذا تساءلنا ما هو السّر الذي على أساسه يرتكز رجاؤنا ويتحرّك به تاريخنا، نجد أن الحقيقة واحدة هي هي منذ البداية وستبقى حتى النهاية وهي تقول: ان منطلق الله معكوس تماماً عن منطق البشر. كلمته في وسط الالآم تتمخّض وتولد كما ينبلج الفجر من منتصف الليل والظلام. والبطل الذي يفتح

التاريخ. أمام من سدت في وجههم سبل الرجاء والمستقبل. هو الحمل الصامت الوديع المذبوح والقائم. لا أسد يهوذا، وان المنتصرين على الفرسان الأربعة هم الشهداء المدفونون تحت المذبح والقديسون الذين ترتفع صلواتهم كالعطر في جامات الملائكة. وان قاهر التنين هو امرأة وولد. وان المدينة التي نسعى إليها لا يعلو بنيانها بقوة سواعدنا. ان الرجاء في قيامها على صورة السماء مرتهن بصفحات كتاب، كلماته خافتة كالنسمة. وهو آخر الكتب.